المقتطف

الجزء السادس من السنة الثانية عشرة

١ آذار (مارس) ١٨٨٨ = ١٨ جمادى الثانية سنة ١٣٠٥

الفينيقيون ومفاخرهم

لكلِّ شيءٍ اذا ما تمَّ نُقصانُ فلا يُغَرَّ بطيبِ العيشِ انسانُ
هيَ الامورُ كما شاهدتَها دُوَلٌ مَنْ سرَّهُ زمَنٌ ساءتهُ أزمانُ
وهذه الدَّارُ لا تُبقي على احدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يَمَنٍ وأينَ منهم اكاليلٌ وتيجانُ
وأينَ ما شادهُ شدَّادُ في إرَمٍ وأينَ ما ساسهُ في الفرسِ ساسانُ
وأينَ ما حازهُ قارونُ من ذَهَبٍ وأينَ عادٌ وشدَّادٌ وقحطانُ

وابن الفينيقيون "ملوك البحار وتجار الامم" واصحاب الثروة وارباب الهمم الذين سادوا الشعوب بمجدهم وشادوا الممالك بكدهم وباهوا بالسلام والامان وفخروا العالم بالتجارة والعمران واشتدَّت صولتهم بحكمتهم وقويت شوكتهم بهمتهم حتى اتخذوا الواح سفنهم من سرو سنير[1] وسواريها من ارز لبنان ومجاذيفها من بلوط باشان[2] ومقاعدها من العاج المطعَّم في بنس كتيم[3] ورواياتها من مطرز مصر القديم وشراعها من فاخر كتانها واغطيتها من اسمانجوني جزائر اليشه[4] وارجوانها. وركبوا البحر والبر فجازوا عمودي هرقل واحتفروا القصدير من بلاد الانكليز وجاءوا

(١) هرمون اي جبل الشيخ (٢) بلاد حوران (٣) قبرس (٤) لعلها المورة

بالاطيار من جزائر كناري . وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص من ترشيش[٥] وبالعبيد والاماء وآنية النحاس من ياوان[٦] وتوبال[٧] وماشك[٨] وجلود الاسود والنمور والفيلة من بلاد المغاربة والحبش والفرسان والبغال من بيت توجرمة[٩] . والبهرمان والارجوان والمطرّز والبوص والياقوت والمرجان من آرام[١٠] وبالخمر والصوف من دمشق والحنطة والحلاوى والعسل والزيت والبلسان من يهوذا واسرائيل[١١] والغزل والحديد المشغول والسليخة وقصب الذريرة من دان[١٢] وياوان . وطنافس الركوب والابنوس والعاج من الهند وعرب ددان . والكباش والاعنزة والخرفان والفخر انواع الطيب والحجارة الكريمة والذهب من بلاد سباورعمة وغيرها في جزيرة العرب . ونفائس الاردية الاسمانجونية والمطرّزة واثمن اصناف المبرم في اصونة الارز من حرّان[١٣] وكنه[١٤] وعدن وشبا واشور الى غير ذلك من الهند في اسيا شرقًا حتى تأتي بلاد المغاربة في افريقية واطراف بريطانيا في اوربا غربًا — ابن الذين فاقوا السلف في الصناعة وسبقوا في تعميم الحضارة واتقنوا العمارة — ابن الذين استنبطوا حروف الهجاء وعلموا الناس الكتابة وانشأوا المهاجر واوجدوا الاساطيل وتفردوا في الملاحة وسلك البحار في القديم

أتى على الكل امرٌ لا مردَّ له حتى قضوا فكأنَّ القومَ ما كانوا
وصارَ ما كانَ من مُلكٍ ومن ملكٍ كما حكى عن خيال الطَّيف وسنانُ

فقل لمن زعم ان امم هذا الزمان خالدة وحسب ان تمدنهم ثابت لا يزول وصيغة حضارتهم عن لونها لا تحول لو كان الدهر يبقي على احد لأبقى على فينيقية رسومها ولم يمحُ آثارها ويخمد ضوء تمدنها وقد كان دأبها نشر التمدن وتوسيع نطاق الحضارة . ولو اردنا ان نشبهها باحد هذا الزمان لقلنا ان امة الانكليز ابنتها او النكاس صورتها لتشابههما في اتساع التجارة والثروة واعتمادها على الملاحة والصناعة وافتخارها بالسلم وتوسيع نطاق الحضارة وانشائها المهاجر العظيمة في البلدان الشاسعة على قلة عددها وتسلطها على البلاد الواسعة مع ضيق بلادها والتجائها عند الخطوب الى حسن السياسة واستلامها بجودة الراي والتدبير مقاليد الرئاسة الى غير ذلك من وجوه الشبه في ماهو قوام الممالك والشعوب . ولولا اختلاف المملكتين في الاعتقاد وشعائر الدين لحكمنا على مصير الواحدة بمصير الاخرى عن ثقة ويقين . وليس في ذلك مبالغة ولا شطط فنسل

(٥) يظن انها في اسبانيا (٦) اليونان (٧) في نواحي قوقاف (٨) لعلها بلاد المسكوب
(٩) في ارمينية (١٠) مملكة سورية (١١) فلسطين (١٢) تل القاضي (١٣) في شمالي الجزيرة او ما بين النهرين (١٤) هي كلنة المعروفة في التاريخ

الفينيقيين لا يزال لهذا العهد نشيطًا الى المهاجرة والارتحال بصيرًا بالكسب والتجارة اذ لم نسمع ان احدًا غالب تجار اوربا من اهل الشرق فغلبهم غير تجار بيروت وسواحل سورية . وملاّحوهم وصيادوهم يخوضون عباب البحور الى يومنا هذا بالسفن الشراعية الصغيرة ويقتحمون اليمّ واللجج بالقوارب والزوارق حتى كأنّ البحر مسكنهم وماء اليم مأواهم

هذا وفينيقية بلغت ما بلغت من العظمة والمجد قديمًا ولم يكن لها من الارض الاّ رقعة من سواحل البحر المتوسط محصورة بينه وبين جبال لبنان على عرض عشرة اميال او خمسة عشر ميلاً في طول مئة وخمسين ميلاً من خليج انطاكية شمالاً الى جبل الكرمل جنوبًا . ولكونها سواحل منخفضة كانت تسمّى قديمًا ارض كنعان اي الارض المنخفضة وكذلك البلاد التي احتلها الاسرائيليون كما كانت الاراضي الشاخصة في الشرق والشمال من سوريّة تسمّى ارض آرام اي الارض المرتفعة وكان اهل مصر القدماء يسمّونها ارض كمت ومعناهُ بلغتهم النخيل وعنهم ترجم اليونان قسموها فينيكي ومعناهُ بلغتهم النخيل ايضًا . واما اهلها الاصليون فالمشهور انهم اتوها من نواحي خليج العجم والظاهر انهم هم واليهود وسكان بابل واشور كانوا يسكنون قديمًا ارضًا واحدةً ويتكالمون ويتفاهمون بدليل تشابه لغاتهم تشابهًا عظيمًا واشتراك الفينيقيين والاشوريين والبابليين في عبادة بعض المعبودات كالمعبود مالك او مولك وبعل وداكان وهو داجون فيما يُظَن . وتشابه العبرانيين والفينيقيين هيئةً ولغةً وطبعًا يدل على انهم اولاد الاعمام وسليلة جدٍّ واحدٍ . ولما تغلب العبرانيون على الكنعانيين لم يكن بينهم فرق في اللسان وانما كان الاولون قومًا متبدّين والآخرون قومًا متحضرين وقد سبقوهم في نظام المعيشة وترف المعيشة . وكثير من الشعوب التي كانت مستوطنة بلاد كنعان في ايام بني اسرائيل كانوا هم والفينيقيون من اصل واحد على ان الباقين كالاموريين كانوا من العرب والحثيين من غيرهم . ولا يبعد ان الفينيقيين وسائر انسبائهم من الكنعانيين تغيّروا بعض التغير بممازجتهم سكان البلاد الاوّل الذين لا يعلم عنهم الاّ اليسير . وتغيروا اكثر من ذلك بممازجة جيرانهم الآراميين وهم سكان دمشق وضفتي نهر العاصي

واما زمان ارتحال الفينيقيين من وطنهم الاصلي ونزولهم على سواحل البحر المتوسط فغير معروف والمحقق انهُ قديم العهد جدًا فقد ذكر هيرودوتس في تاريخهِ ان هيكل ملكارث الذي كان مبنيًا في صور بني قبل زمانهِ بالفين وثلثمائة سنة فيكون قد بني قبل المسيح بنحو ٢٧٥٠ سنة . وعسى ان قول هيرودوتس غير صحيح كما يظن جماعة فلا ريب ان الفينيقيين كانوا قد بلغوا درجة سامية في التمدن والعظمة ايام تسلط الملوك الرعاة المعروفين بالهكسوس على مصر . ودليل ذلك كثرة المهاجرين منهم حينئذٍ الى وادي النيل فانهم شغلوا مصاب النيل

واما اجناد فينيقية فهي صيداء (صيدون) وصور (وهذا هو اسمها الفينيقي لم يتغير) وجبيل (ومن توابعها بيروت) وعكاء (بطلمايس) والزيب (اخزيب) والبترون (بطاريس) وطراباس (تريبولس) وعمريت (مرثوس) ورواد (ارواد او ارادوس) وطرطرس (انتارادوس) واللاذقية (رامثا) وسمرة (زمار شمالي طرابلس) وعرقا. واما انهارها فكان ستة منها تُعدُّ انهارًا مقدسة وهي النهر الكبير (اليوثروس) ونهر ابرهيم (ادونس وعلى ضفتيهِ كان النساء يبكين ويحنّ على المعبود تموز في شهر تموز) ونهر الكلب (ليكوس) ونهر الدامور (تاميراس) ونهر الأوّلي (استرينوس) ونهر نعمان (بيلوس)

وليس مرادنا من ذكر مدائن فينيقية وانهارها التعرُّض لتاريخها وجغرافيتها فان ذلك غير مقصود في هذه المقالة وانما ذكرناها هنا لاحضار صورة فينيقية بعينها في اذهان القراء عمومًا والقراء السوريين خصوصًا ونتأوّلاً بان ما انمّ سكان تلك المدائن قديمًا لا ينصرعنهُ سكان ولاية بيروت الجديدة حديثًا فقد اصبحوا الآن بانعام الدولة العلية ولاية تطابق فينيقية في اكثر جهاتها فهلاّ شمروا عن ساعد الجد ونشطوا من عقال الخمول فحققوا للعالم انهم ابناء الفينيقيين اصلاً وفصلاً واكفاؤهم جدًّا وفعلاً. فقد امتاز اسلافهم الفينيقيون بسهولة اكتساب الاشياء واقتباسها عن اهلها وذلك لا يزال ظاهرًا فيهم الى اليوم وانما يلزم ابناء هذا الزمان ان لا ينصروا عما امتاز به آباؤهم ايضًا وهو انهم كانوا يزجون بين ما يقتبسونهُ و يركبونهُ على صور مبتكرة واشكال جديدة فانهم اقتبسوا الفنون الجميلة من نقش ونحت وتصوير وتمثيل عن ملكتي بابل ومصر ثم حسّنوا فيها وانقنوها والفوا بينها على صور جديدة حتى فاقوا الذين تعلموها منهم وجعلوا يرسلون مصنوعاتهم اليهم و يبيعونهم اياها بغالي الاثمان. فتعلموا تقطيع الحجارة الكريمة وعمل الخرز وصبغ الاردية المطرّزة مثلاً من اهل بابل واشور ثم ما لبثوا ان اتقنوها و برعوهم فيها وصاروا يبيعونهم مصنوعاتهم منها. وتعلم المهاجرون منهم الى مصر في ملك الرعاة مبادئ الكتابة فاستنبطوا منها الحروف الهجائية سهلة التعلم عامة الاستعمال[١٥] ثم نقلوها الى بلادهم حيث فخموا اسماءها المصرية وسموها اسماء فينيقية ثم علموها لليونان المغرب وغيرهم[١٦] حتى آل الامر الى تعليمها المصريين

(١٥) انظر وجه ١٨٨ من السنة الرابعة من المقتطف. وايضًا وجه ٥٣٣ من السنة الثامنة

(١٦) قد تقدمت ادلتنا على صحة ذلك في الجزء الماضي من المقتطف خلافًا لما ذهب اليهِ سيادة المطران افلمبيوس يوسف داود من ان السريان هم الذين علموا حروف الهجاء لليونان بدليل اختتام بعض الحروف اليونانية بالالف التي قال سيادتهُ انها الف الاطلاق السريانية. وقد قابلنا في هذه الاثناء صديقنا الاستاذ سايس الانكليزي وهو من اشهر علماء الارض في معرفة اللغة الفينيقية والعاديات وقد ذهب في بادىء الامر مذهب

انفسهم . فهل لصنّاع بيروت او غيرها من مدن فينيقية ان يقتدوا بآبائهم في اتقان الصناعات حتى يبرعوا فيها اهليها ويرفعوا عنهم ما مسهم ومسّ الشرق كلّهُ من عار التراخي والقصور اذ يشتري الافرنج حاصلاتهم منهم بالدرهم ويردونها اليهم فيبيعونهم رخيصها بالدينار (١٧)

ومن مفاخر الفينيقيين عظم اقدامهم وعلو همتهم في توسيع نطاق التجارة فانهم لما كانت جبال لبنان تحدُّهم شرقًا وكانت اراضيهم ضيقة النطاق لا تفي زراعتها حوّلوا وجوههم غربًا فخاضوا البحر المتوسط يصيدون منهُ الحوت ويغوصون على صدف الارجوان (١٨) ويتاجرون مع ما جاورهم من البلدان . وكلما قل صدف الارجوان من امامهم ابعدوا في طلبهِ واوغلوا فاقتضى ذلك ان ينشئوا مهاجر لصيد المرجان وترويج متاجرهم وادارة صنائعهم فانشأوا مدنًا لهم في قبرس ثم في رودس ثم في جزائر شتى من جزائر الارخبيل الرومي وعلى سواحلهِ وسواحل البحر الاسود وتجاوزوا الى بلاد يونان حيث بنى قدمس وجماعتهُ مدينة ثيبة فتمكنت قدمهم في بيوتيا بين اليونانيين . وكذلك هاجروا الى سردينيا وسيسيليا وكورسكا واسبانيا وحدود افريقية حيث اشتهرت قرطاجنة اعظم مهاجرهم وامتلكوا عمودي هرقل اي مدخل جبل طارق وركبوا متن الاوقيانس الاتلنتيكي حتى وصلوا الى بلاد الانكليز ولم تبلغ اليها امة سواهم من امم ذلك الزمان

وكما خاضوا البحر جابوا البر لمد تجارتهم الى اقصى البلدان فكانت قوافلهم تسير شمالاً الى كبدوكية وبلاد الارمن حيث يقايضون على مصنوعاتهم بالنحاس والخيل والبغال والعبيد وتسير شرقًا الى تدمر ومنها الى مدينة تبسكس على الفرات من حيث يذهبون في جهة الى بلاد اشور وفي أُخرى الى بابل ورأس خليج العجم ومنهُ يركبون السفن الى البحرين والهند . وتسير جنوبًا الى بلاد العرب . وكانوا يركبون السفن من خليج العقبة ويقطعون البحر الاحمر ويدورون بجزيرة العرب وربما بلغوا الهند على هذه الطريق . وبذلك استنزفوا ثروة المسكونة شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا . وانشأوا لجميع بضائعهم ومصنوعاتهم الاسواق والبنادر في مهاجرهم واقاموا في تيرا وميلوس حيث يكثر التراب البركاني معامل متسعة لصنع آنية الخزف والفخار

سيادة المطران واذاعهُ في كتاباتهِ له . ولدى المذاكرة معهُ اخبرنا انهُ عدَل عن رأيهِ الاوّل لضعفهِ ولان بعض الحروف عندهم بالالف وبعضها عطلٌ منها وذلك يقدح في كونها الف الاطلاق كما لا يخفى . وعندهُ ان هذه الألف من وضع اليونانيين انفسهم ختموا بها الالفاظ الفتية على السنتهم ترخيمًا للفظها . وذلك يزيد دليل المطران ضعفًا على ضعف

(١٧) انظر مقالات تدبر الشرق وتدبير الغرب في السنة الاولى والثامنة من المقتطف

(١٨) قد تحقق من انواع هذا الصدف نوعان احدهما يسمى عند علماء الحيوان موركس والآخر بربورا وكلاهما حاز وفي الشكل ما يعرف عند العامة بالبوق

وجعلوها مركزاً للتجارة الخزف وفتحوا في ثاسوس مناجم الذهب واستعبدوا فتيان اليونان لاستخراج الركاز منها وقد روى هيرودوتس انهم دكوا جبلاً برمته فيها قبل المسيح بالف وثمانية سنة . وامتلكوا برزخ كورنثس مفتاح البحر الغربي فتيسرت لهم التجارة فيه وبرعوا في نقسية النحاس بالتصدير وصنع معدن البرونز من خلطها استغناء به عن الحديد في الصناعة لصعوبة استعمال الحديد حينئذٍ وهذا ما اضطرهم الى الاسفار وركوب الاخطار لاستخراج القصدير من بلاد الانكليز

وكما فاقوا في التجارة فاقوا في الصناعة فارجوانهم كان من نفائس الارض يتباهى بلبسه الملوك والاعيان ويضرب به المثل الى هذا الزمان وكانوا يسمونه بفاخس الاثمان فقد روي ان زوجة قيصر من قياصرة رومية طلبت اليه ان تلبس رداء حريرياً ارجوانياً فأبى بحجة ان ثمنه يجهل الدولة ثمناً عظيماً. وقد نهى اوغسطس قيصر عن لبسه نهياً مشدداً تخفيفاً للنفقات عن كاهل الامة اذ كان رطل (ليبرة) الصوف الارجواني يباع في زمانهما يساوي ثلاثين ذهباً انكليزياً. وخلع طيباريوس قيصر رداءه الارجواني عنه ليفتدي قومه به فيتوفر عندهم المال. وحتم نيرون الطاغية ان لا يباع منه الاَّ بضعة ارطال (ليبرات) في اليوم ورأى مرة امرأة لابسة رداء كاملاً من الحرير الارجواني فحنط عليها وامر بطردها من حضرته واحتجز على امتعتها. ولكن ولع الرومانيين بلبس الارجوان لم يكن اقل تأثيراً فيهم من اوامر الملوك ونهي السلاطين

واشتهروا في صناعة الزجاج حتى صار اختراعها ينسب اليهم وقد رووا عن اصل اختراعها حكاية لطيفة وهي ان سفينة كانت آتية الى سورية بالقلي لصنع الصابون فنزل الملاحون على رمل ابيض قليل الكواثب في نواحي عكاء واراد وا ان يطبخوا عشاءهم هناك فلم يجدوا حجارة اثافيّ يضعون القدر عليها فوضعوا من حجارة القلي واضرموا النار فذاب القلي والرمل واختلطا معاً فحصل منهما الزجاج والمحقق ان صناعة الزجاج كانت شائعة عند المصريين . منذ ايام الدولة الحادية عشرة

وفاقوا في الملاحة ايضاً سائر الشعوب واخترعوا ثلثة انواع من السفن وكان اهل جبيل ابرعهم في بناء السفن والفلافة واهل صيدا وارواد في التجذيف والملاحة . واهل قرطاجنة اول من بنى سفينة بثلاثة صفوف من المقاعد للمجذفين . وكان الفينيقيون من اهل قرطاجنة يسافرون مهتدين بنجم القطب خلافاً لليونانيين الذين كانوا يهتدون ببنات نعش

وكان بنّاؤوهم اشهر بناتي الارض في زمانهم وبرعوا في النقش والنحت والحفر والزخرفة براعة يضرب بها المثل فنقلوا صورة الوردة وسعف النخل عن البابليين وصورة الكروب عن

الاشوريين وصورة السفنكس عن المصريين وألفوا بينها وركبوها على صور جديدة كما كان دأبهم على ما سبقت الاشارة اليه. ومن رام ان يعرف بعض ما بلغوا اليه في اتقان فن البناء والهندسة والنقش والحفر والنحت والزخرفة فليراجع وصف هيكل سليمان في التوراة فان المهندسين والبنائين الذين ارسلهم حيرام ملك صور الى سليمان الحكيم انما هندسوا وبنوا على مثال هياكلهم حتى عمودا النحاس ياكين و بوعز اللذان سبكهما المعلم حيرام الصوري من النحاس ونصبهما في رواق الهيكل والبحر الذي صنعه من النحاس وركبه على اثني عشر ثورًا من النحاس منقولة كلها عمَّا كان يصنعه الفينيقيون في هياكلهم

وحصلوا في الطب مقامًا يشكر حتى لم يكن اطباء مصر في زمانهم امهر من اطبائهم فقد كان اعظم طبيب للعيون ايام الدولة الثامنة عشرة المصرية رجلاً جُبيليًا بلغت شهرته الآفاق وجرى اطباء مصر انفسهم على علاجه. و براعتهم في فن البناء والملاحة والفلاحة تستلزم معرفتهم للميكانيكيات واستعمال العتلة والبكرة. ولو لم تطمس الايام آثارهم وفجع الدهر كتاباتهم لعلمنا عن علمهم وصناعتهم ما لا يخطر لنا الآن على بال. واما ما بقي من زمانهم واتصل الينا خبرهُ فنزر يسير اشهرهُ ورد في كتب يوسيفوس المؤرخ نقلاً عن تاريخ صور الذي الفهُ دبوس وينقدر الافسسي من كتابات الصوريين انفسهم. وبقي شواهد من تاريخهم الذي الفهُ موخوس او أخوس الفائل بالجوهر الفرد قبل حرب تروادة على ما قيل. وشذرات ترجمها فيلون الجبيلي قبل المسيح بقرنين من كتب سنخنياثون (واسمهُ الاصلي سكُن يتن) في تاريخ فينيقية وديانتها. وما بقي من آثارهم ايضًا ثمانية وعشرون كتابًا في الزراعة كتبها ماغو القائد القرطجني وترجمها اليونانيون والرومانيون الى لغتهم وكتاب لهنو او حنُّو القرطجني في خبر رحلتهِ على حدود افريقية من جهة الغرب ذكر فيهِ انهُ اصاب في رحلتهِ قومًا من الغيلان اسمهم الغورلاً

ومما يعاب على الفينيقيين خشهم في ديانتهم وكذبهم وتحيلهم في اخبارهم ومعاملتهم فانهم كانوا يروون عن الاماكن البعيدة التي يذهبون اليها الاخبار الملفقة والاقاصيص والخرافات الطافحة بالاكاذيب حتى صار القدماء يضربون المثل في كذبهم فيقولون اكذوبة فينيقية. وكانوا اذا دخلوا بلادًا لم يتخرَّج اهلها في التجارة يحتالون عليهم حتى يسلبوهم امتعتهم بارخص الاثمان واذا اصابوا سفنًا مشحونة بالبضائع في الجهات المنفردة التي يؤمن فيها عدل القضاء وسيف الحاكم ينقضون عليها كالنسور ويسلبون ما فيها ويستعبدون ذويها ويبيعونهم مع من يبيعونهُ من العبيد والاماء. وكانوا حريصين على احتكار المتاجر واخفاء الطرق عن غيرهم. حكي ان سفينة رومانية رأت سفينة فينيقية خارجة من قادس وسائرة في الاوقيانس الاتلنتيكي لتحن القصدير

فاقتنعت اثرها طمعاً في الاهتداء الى مناجمهم . فلما احس ربان السفينة الفينيقية بذلك عدل عن طريقه الى البر وابطل السفر فرجعت السفينة الرومانية خائبة . ولما علمت الحكومة الفينيقية بما جرى اجازت السفينة الفينيقية بقيمة ثمن البضاعة التي كانت سائرة في طلبها وذلك لانها تحملت الضرر رغبةً في حصر منافع التصدير في بني وطنها

على انه لا ينكر ان فضل الفينيقيين على اوربا اشهر من نار على عَلَم فهم الذين ادخلوا معارف المصريين والبابليين والاشوريين الى بلاد اليونان وغيرها من بلاد اوربا وهم الذين علموهم الصناعة والملاحة والتجارة وهم الذين ابلغوا تمدن الشرق الى الغرب وهم الذين فتحوا سبل الاتصال بينها حتى ابصر اليونان وغيرهم طرق النجاح فنضوا عنهم غبار الكسل وشمروا عن ساعد الجد وقام الدوريون منهم فطردوا الفينيقيين من جزائرهم وقام الملاحون الايونيون وسابقوهم الى عمودي هرقل وقام الايطاليون وحالوا في مرافئهم على حدود بلادهم وجوارها وشاغلهم الاشوريون في فينيقية وانزلوا بهم الويل والخراب . ولولا مدينتهم قرطاجنة في افريقية لاعدت اركان وجودهم منذ ذلك الزمان ولكن قرطاجنة افرجت عنهم بقهرها اليونان واذلالها سيسيليا وسردينيا وشمالي افريقية ودخولها اسبانيا . وبينما هي تأخذ بثار ادها وتحرز اكاليل الفخار لذويها حمل الاسكندر ذو القرنين على فينيقية وافتتح صور اشهر مدنها عنوةً واقتدارًا بعد ان حاصرها حصارًا طويلاً تشيب لطوله الولدان وباع الثنين الفًا من اهلها عبيدًا وقتل الوفًا وصلب مثلهم ممن بقي وسلب ثروة اغنى مدينة في الارض وغادر البلاد على آخر رمق فتولاها النزع زمانًا وما زالت تحتضر بين بؤس وشقاء حتى امتلكها ايدي الغرباء وكان ذلك آخر عهدها في العزة والمنعة والسؤدد والرئاسة

متف الغابرة ومتف الحاضرة

واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العبادُ وتسعدُ

مَنْ نظر الى الارض كجرم من اجرام السماء او بحث عن تكوُّن طبقاتها وتولُّد طوائف النبات والحيوان فيها اذهلته الدهور الطوال عن البحث في احوال الانسان ابن يومه الذي لم يعمّر الارض الاَّ منذ هنيهة من الدهر . ولكن اذا كان البحث في اجرام السماء وطبقات الارض يبهر البصر ويحيّر الفكر فالبحث عن احوال البشر في العصور الخوالي وما توالى عليهم من البؤس والنعيم وما ابقوهُ من آثارهم الدالة على مكانهم من القوة والعزة او الضعف والذلّة فهو